مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السابع / العـدد الأول
(ذو القعدة 1444هـ/ جوان 2023م)، ص 50–66

مواجهة الملك فيليب الثاني أغسطس للبابا إينوسنت الثّالث
(1198– 1216م)

Philippe II Auguste dared the Pope Innocent III
(1198–1216)

د. كربال زكية [1] karbel zakia

[1] جامعة الجزائر(2) أبو القاسم سعدالله histoireeduc@gmail.com

المؤلف المرسل: د/ كربال زكية الإيميل:hassene_84@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 27 /2023/04 تاريخ القبول: 20 /2023/05

الملخص:

تتناول هذه الدّراسة جانبا هامّا من السّياسة الخارجية لمملكة فرنسا في العصور الوسطى. إنّ الأمر يتعلّق بالعلاقة بين الملك الفرنسي فيليب الثاني أغسطس(1180- 1223م) والبابا إينوسنت الثالث (1198- 1216م).

منذ تولّي فيليب الثّاني عرش فرنسا، عمل جاهدا لوضع أسس متينة لإدارة ذات فعاليّة من أجل التّسيير الحسن لشؤون الرّعية، وسعى لوضع لبنة لجيش قويّ يذود على المملكة ويحميها من كلّ خطر يحوم بها، سواء كان مصدره الداخل أو الخارج على حدّ سواء.

وفي ذات الوقت عمل جاهدا من أجل توسيع ملكه، وذلك بأن ناضل بشجاعة منقطعة النّظير لاسترجاع أجزاء هامّة من أراضي فرنسا، والتي كانت تدين بالولاء والتّبعية لعرش بلانتجنيت *Plantagênet* الإنجليزي .

لكن من الأهمّية بمكان القول، أنّ سياسته هذه والتي تتعدّى الحدود الإقليميّة قد اصطدمت بطموحات رجل آخر لا يقلّ عنه وزنا، بل اعتبر سيادته فوق كلّ السّلطات القائمة، إنّه البابا إينوسنت الثالث.

ومن خلال الوثيقة التي قمت بترجمتها والشّروحات المرفوقة بها، حاولت تتبّع فصول هذا الخلاف والمناخ الدّولي الذي اشتعل فيه.

الكلمات المفتاحيّة: فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي؛ فيليب الثاني أغسطس؛ إينوسنت الثالث؛ يوحنا المنزوع الأرض؛ الميثاق الكبير.

Abstract:

This study concerns one side in the external political of the French Kingdom during the middle ages. It's consist on the relations between the king Philippe II Auguste (1180-1223) .(and the Pope Innocent III (1198- 1216

with his access to the throne of France Philippe II worked to built a great Kingdom. He began to make the foundations of a strong administration in the aim to manage well the .office of the Kingdom

The king was interested also in the military affairs, he contributed to build an important army, having as mission to protect the French interests and take back from the English .Kingdom, the French properties

It's very important to see that this ambitions policy of the French king was confronting the Pope Innocent III who considered himself the first leader in the Christian world in the religious as in the political fields. In this article, I will discuss the real roots of this confrontation between the two famous figures in the middle ages, and about the climate .which reigned in Europe in this period

In reality, the king of France has not submitted to the Pope despite the weapons used .against him as banning his region and excommunication

After a long confrontation between the two mans, Philippe II succeded in this conflicts with the Pope and with his political ennemies, especially Jean of England. With his death .(1223), Phillippe II left a vast Kingdom which become a real force in all Europe

Keywords: Philippe II August; innocent III; Jean of England; the battle of Bouvines; the

مقدّمة:

يعتبر فيليب الثّاني أغسطس (1180- 1223م) من أشهر ملوك فرنسا في العصور الوسطى. ساهم بشكل لافت في بناء المؤسّسات في الدّاخل وفرض هيبة فرنسا على الصّعيد الخارجي. في الواقع، لم يكن عمل البناء هذا يخلو من مخاطر ذلك أنّ المملكة الفرنسية كانت مهدّدة على مختلف الجبهات. فمن جهة، فإنّ الملوك الذين تعاقبوا على عرش إنجلترا قد تربّعوا على أجزاء هامّة من الأراضي الفرنسيّة، ومن جانب آخر فإنّ الإمبراطوريّة الألمانيّة قد ضيقت الخناق على المملكة، وباتت حاجزا حقيقيّا على كلّ حركة للتّوسّع الفرنسي.

وأمام تعاظم شأن هذه القوى السّياسيّة على السّاحة الأوروبيّة، كان على فيليب الثّاني أيضا أن يواجه السّلطة الرّوحيّة آنذاك ممثّلة في البابا إينوسنت الثّالث. في الحقيقة شكّل جلوس هذا الأخير على العرش الرّسولي علامة فارقة في بناء «مؤسسة البابويّة» مع كلّ ما يحمله هذا المشروع الكبير من السّعي الدّؤوب لفرض سيادة البابا، ليس في الجانب الديني فحسب ولكن في الميدان السّياسي أيضا. ومن أجل تتبّع فصول هذا الخلاف الذي تولّد عن سعي إينوسنت الثّالث لأن يجعل فيليب أغسطس خاضعا لأوامره وسيادته، اعتمدت على وثيقة تاريخية تلخّص لنا فصول هذا الصّراع والتي قمت بترجمتها إلى اللّغة العربية، ومن خلالها فإنّ مجموعة من الإشكاليّات تفرض نفسها منها: كيف استطاع فيليب الثاني أغسطس تحدّي الزّعيم الرّوحي الأعلى للكاثوليك؟ ما هي العناصر التي استند عليها الملك الفرنسي في مواجهته لأقوى رجل دين في تلك الفترة؟ كيف تمكّن فيليب أغسطس من عقد صداقة مع أعدائه بالأمس لمواجهة عقاب المنع الذي فرضته البابويّة على مملكته؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات المختلفة، اعتمدت على وثيقة هامّة بعنوان:

«**How Philippe II Auguste dared to face the Pope Innocent III him self**»

والتي قمت بترجمتها إلى اللّغة العربية، وأرفقتها بشروحات وتعليقات إضافية:

«**كيف تجرّأ فيليب أغسطس على مواجهة إينوسنت الثّالث نفسه**».

1– ترجمة الوثيقة الأصلية:

سنة 1193م تزوّج فيليب أغسطس Philippe Auguste من أنجبرج Ingeburge، ابنة ملك من الدّانمارك. لكن، سرعان ما طلّقها دون سبب مقبول، عمد إلى سجنها في دير وتزوّج ثانية. ما إن ارتقى [تولّى عرش البابوية]، وجّه إينوسنت الثّالث Innocent III لفيليب إنذارا شديدا: «إنّ المنصب الملكي لا يمكنه أن يكون فوق واجبات مسيحي، وفي هذا الصّدد، يمنع علينا أن نقوم بأيّ تمييز بين الأمير والمؤمنين الآخرين».

الملك، رافضا إبعاد زوجته الثّانية، فإنّ البابا ألقى المنع على المملكة. لكن، أغلبية الأساقفة تجرّأوا على عصيان البابا، والتفّوا حول الملك. أمّا أولئك الذين أطاعوا أوامر إينوسنت الثّالث فإنّهم رأوا أملاكهم تتعرّض للمصادرة.

سنوات قليلة بعدها، نزاع جديد: إينوسنت الثّالث، الذي كان يحمي آنذاك جون– المنزوع الأرض Jean sans terre، رغب في إجبار فيليب أغسطس أن يعقد السّلم مع ملك إنجلترا (1203)، فيليب يرفض وتحصّل من أفصاله على وعد بأنّهم سيدعمونه حتى ضدّ البابا. ها هو وعد دوق بورغونيا Bourgogne؛ «أنا أود Eude من بورغونيا، أُعلم كلّ الذين ستصلهم هذه الرّسائل بأنّني نصحت سيّدي فيليب ملك الفرنسيّين الشّهير بأن لا يعقد مع ملك أنجلترا أيّ سلام ولا هدنة التي ستفرض بعنف سيّدي البابا أو أي من الكرادلة، إذا باشر السّيد البابا بأن يوجّه أيّ عنف للسّيد الملك فإنّني وعدت السيّد الملك... بأنّني سآتي لنجدته... وبأنّني لن أعقد السّلم مع السّيد البابا إلاّ عبر وساطة السّيد الملك المذكور»، إنّ حزم فيليب اغسطس قد تغلّب على البابا، ويوحنا عديم الأرض، فقّد نورماندیا Normandie، أنجو Anjou وتورين Touraine.

في ذلك الوقت، فإنّ التّعسة أنجبرج ظلّت سجينة، التمست، دون جدوى، دعم البابا «في هذا السّجن»، كتبت تقول: لا يوجد هناك أيّ مواساة بالنسبة لي، لكن معاناة مستمرة ولا تطاق.
لا أحد يتجرّأ على القدوم إلى هنا لزيارتي... إنّ الطعام الذي يعطى لي بالكاد يكون كافيا... ليس لديّ ما يكفي من الثّياب وإنّ تلك التي أرتديها ليست جديرة بمكلة...، البابا يؤجّل الفصل في القضيّة، إنّه يعرف كم كان الملك متسلّطا. في نفس الفترة، فإنّ الملك دخل في نزاع مع البابا في ألمانيا. ثلاثة مرشّحين كانوا يتصارعون على التاج، البابا كان يحمي أوتو Otton، المنهزم المقبل لبوفين Bouvines. فيليب

أغسطس الذي كان يدعم أميرا آخر، كتب لإينوسنت الثّالث: «إنّ الأذى الذي ألحقته بي شخصيّا (تلميح لقصّة أنجبرج) قد تحمّلته دون قول شيء، لكنّ الإجراء الذي سوف تتّخذونه لصالح أوتو ذي طبيعة مسيئة لتاجي، من شأنه أن يضرّ بشكل خطير بمصالح ملكية فرنسا... ما لن أسمح به أبدا...».

أتو يصبح في نهاية الأمر إمبراطورا بفضل البابا، لكن عندئذ انقلب ضدّ حاميه. وها هو إينوسنت الثّالث اشتكى بأنين لفيليب أغسطس: «آه! لو خرقنا مثلكم مزاج أتو، لما تمكّن من خداعنا! نكلّمكم وكلّنا خجل. لقد قلتم لنا بأن نحذر من هذا الرّجل»، إلتمس مساعدته، لكنّ الملك يرفض بأن يتورّط، وأجاب بسخريّة: «نأسف بأنّ الإمبراطور المزعوم أوتو كانت له إمكانية بأن يلحق بكم الأذى، وهذه الفكرة تملأنا بالمرارة. وفيما يخصّ إرسال مائتي فارس لكم عبر البحر، كيف يمكننا فعل ذلك بما أنّ بروفانسيا Provence أرضا إمبراطورية وأنّ موانئ هذه المنطقة تابعة أيضا للإمبراطور؟، (أمّا مساعدتكم ماليا) ليبدأ المطارنة، الأساقفة رؤساء الأديرة، الرّهبان وكلّ إكليريكي كنيسة فرنسا بأن يأتوكم بالمساعدة، حينها سنساعدكم بدورنا وبكلّ سرور».(*)

2– شروحات وتعليقات:

– تزوّج فيليب الثّاني أغسطس للمرّة الأولى من إيزابيلا Isabelle ابنة بلدوين Baudoin كونت منطقة هينوت Hainaut الواقعة بين ليج Liége – شرق بلجيكا– وكومبري Cambrai على الإسكو Escaut، أمّا والدتها فتسمّى مارغريت Marguerite. تعود أصول إيزابيلا إلى الإمبراطور شارلمان (800- 814م).

في الواقع أثار هذا الزّواج زوبعة في المملكة الكابتية، وذلك أنّه تمّ في سرّية تامّة، ولم يخبر به فيليب حتى والدته الملكة، التي كانت آنذاك تفرض سيادتها على المملكة بدعم من إخوتها الذين يعدّون من كبار الحكّام الإقطاعيين آنذاك، بالخصوص، كونتات كلّ من شومبانيا Champagne — شرق فرنسا– بلوا Blois، جنوبي– غرب باريس، سانسير Sancerre على نهر لوار Loire ومطران مدينة ريمس Reims. فمن المحتمل أنّ الملك فيليب كان يرغب في التّخلص من سيطرة هذا التّيار، فتحالف مع فيليب من الألزاس Philippe d'Alsace كونت منطقة فلاندر Flandre –على بحر الشمال– الشّهيرة، الذي يعدّ خال الأميرة إيزابيلا. وقد ذهب البعض إلى القول أنّ هذا الكونت هو من عرض هذا الزّواج على فيليب حتى يبعده عن تأثير أمّه وأخواله، ويجعل منه تابعا له.(1)

– فيليب الثّاني أغسطس:

يعدّ واحدا من أشهر ملوك فرنسا في العصور الوسطى. هو ابن الملك لويس السّابع الشاب Louis VII le jeune (أوت 1137- 1180م) والملكة أديل Adèle وأصلها من شمبانيا Champagne- الواقعة جنوبي شرق العاصمة الفرنسية باريس. ولد فيليب يوم 11 سبتمبر عام 1165م، ينتمي لأسرة كابت Capet الشّهيرة والتي منحت عددا من الملوك الذين تربّعوا على عرش المملكة الفرنسيّة. عيّنه والده الملك لويس السّابع سنة 1179م شريكا له في الحكم. وفي سنه 1180م اعتلى فيليب عرش المملكة عقب وفاة والده الملك. أثار هذا الملك الجديد إعجاب معاصريه، وفي هذا الصّدد كتب عنه مؤرّخه ريجور Rigord وهو يمدحه ويشيد بورعه قائلا بأنّ فيليب «تربّى منذ طفولته في مدرسة خشبة الرّب»، ومن جهته كتب مجهول مدينه تور L'anonyme de Tours، "بأنّ فيليب قد عُرف بجمال طلعته كما أنّه كان متمسّكا بشدّة بعقيدته الكاثوليكيّة مدافعا شرسا عن الكنيسة، إضافة إلى اهتمامه المنقطع النّظير بشريحة الفقراء".

ومن جانب آخر، شبّه المعاصرون فيليب الثّاني بالإمبراطور الرّوماني يوليوس قيصر Jules César (100/ 101- 44 ق.م) في رشاقة جسمه ونضج عقله.

عرف فيليب الثّاني بحنكته في التّسيير، إنّه أحدث ثورة حقيقيّة في الهياكل الإداريّة للمملكة، مثل استحداثه لموظّفين ملكيّين عرفوا باسم Baillis، مهمّتهم إدارة الشّؤون المالية وكذا القضائية.

كان لفيليب أيضا إسهامٌ معتبرٌ في الجانب الاقتصادي، إنّه عمل دون هوادة لإضعاف نفوذ البارونات الإِقطاعيين في مملكته وذلك بتشجيع طبقة البرجوازيّة التي عرفت في عهده نموّا ملحوظا.

تعدّى اهتمام فيليب الثّاني الجوانب السياسيّة، العسكريّة والاقتصادية لتشمل الميدان الفكري والمعماري فإليه يعود الفضل في بناء جامعة باريس عام 1215م، وكاتدرائيّة Notre dame de Paris، وأيضا قلعة اللّوفر Louvre، على الضفّة اليمنى لنهر السّين Seine خارج أسوار مدينة باريس، والتي تحوّلت فيما بعد إلى أشهر متحف في أوروبا برمّتها. ويعدّ فيليب الثّاني أوّل من حمل لقب «ملك فرنسا» بدلا من «ملك الفرنسيّين».

– إضافة إلى إسهامات فيليب الثّاني في مختلف الجوانب، عُرف هذا الملك أيضا بدوره البارز في صراعاته مع أسرة بلانتجنيت Plantagênet الإنجليزيّة التي بسطت نفوذها على أجزاء هامّة من فرنسا، وخلال فترة

امتدّت من عام 1202 إلى 1206م، انتزع من الإنجليز مناطق هامّة هي: الماين Maine، أنجو وبواتو Poitou– الواقعة غربي باريس، نورماندیا Normandie، شمالي– غربها، تورين Touraine جنوبي– غرب حوض باريس. وبهذه المكاسب الهامّة وسّع فيليب الثّاني من مساحة مملكته، أمر جعل منه حاكما مهابا الجانب في الدّاخل كما في الخارج.(2)

في الواقع، كانت العلاقة بين البابا إينوسنت الثّالث والملك الإنجليزي يوحنّا المنزوع الأرض ودّية في بداية الأمر. في هذا السّياق بذل الزّعيم الرّوحي للكاثوليك جهده لدعم الملك يوحنا في سعيه لحماية ملكه والوقوف في وجه الطُّموح الجامح للملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي كان يسعى لِافتكاك الأراضي الفرنسية التي كانت قد استولت عليها أسرة بلانتجنيت Plantagenets منذ مدّة، وهذا مهما كلّفه ذلك الصّراع من ثمن.

لكنّ هذه العلاقة الطّيّبة سرعان ما توتّرت بين إينوسنت ويوحنا وذلك راجع إلى ما بلغ البابا من سوء تسيير يوحنا الذي قد أثقل كاهل رجال الدّين التّابعين للإكليروس الإنجليز بالضّرائب المختلفة. إضافة إلى ذلك فإنّ الملك يوحنا قد تجرّأ على منع المندوبين التّابعين للبابويّة من حضور عدد من المحاكمات الخاصّة برجال الدّين، ليس هذا فحسب بل إنّ الملك قد بلغت به الجرأة حدّ أنّه رفض قبول تعيين الكاردينال إتيان لنجتون Etienne Longton الذي تمّ اختياره من طرف مجلس الكرادلة، لتولّي شؤون مطرانية كونتوربري Cantorbéry الشّاغرة. لم يقف يوحنا عند حدّ رفض المرشح الباباوي لكنّه ذهب إلى أبعد من ذلك، بأن وجّه رسالة شديدة اللّهجة للبابا إينوسنت الثّالث، لكن للأسف، فإنّ جزءا كبيرا من هذه الرّسالة قد ضاع، ولحسن حظّ الباحثين أنّ أحد الرّواة المعاصرين قد حفظ نزرا قليلا منها، وممّا ورد فيها قول الملك: «لم يفعل لنجتون شيئا إلاّ كونه كان يقيم في فرنسا بين أعدائي. إنّني لا أعرفه. قمتم بتعيينه مطرانا، تصرّف مخالف لكلّ شرعية. أتعجّب كيف أنّ الكرادلة ينسون بسهولة حاجتهم لصداقتنا. ألا يعرفون أنّ مملكة إنجلترا تجلب لهم لوحدها مداخيل أكثر من أيّ بلد آخر من ناحية الألب، إن رفض بأن يمنح لي القبول [كان جون قد عيّن شخصا لتولّي المطرانيّة]، سأغلق طريق روما لرعاياي، إنّ إنجلترا والمناطق التّابعة لها تملك ما يكفي من المطارنة والأساقفة والأحبار المتعلّمين والقادرين حتى نستطيع التّخلي عن الأجانب الذين تفرضهم روما...».(3)

على الرّغم من مشاعر المحبّة والاحترام وكذلك الاعتراف التي أبداها إينوسنت الثّالث لفرنسا وذلك نظير ما تلقّاه من علم غزير على أيدي ثلّة من أشهر الأساتذة الفرنسيّين في العصر الوسيط، لكنّه في نفس الوقت كان خصما عنيدا لفيليب الثّاني وذلك من خلال السّعي لكبح جماح هذا الملك الطّموح.

وفي هذا السياق قام إينوسنت الثالث عند تولّيه العرش البابوي (جانفي 1198)، ببعث رسالة للعاهل الفرنسي يخبره بتولّيه السّدّة الرّسولية، بهذا الحدث الهام، وفي نفس الوقت ضمّن سماحة البابا تلك الوثيقة المكتوبة طلبا ملحا للملك بهدف التّصالح مع زوجته الأميرة الدّانية إسمبور Isambour – تسمّى أيضا Eremburge أو Hildeburge– وضرورة إبعاد زوجته الثانية أنياس Agnès التي تزوج بها عام 1196 والتي وصفها إينوسنت «بالدّخيلة»، لكن طلب البابا لم يجد أذنا صاغية لدى الملك فيليب، أمام هذا التعنّت الفرنسي، ردّ إينوسنت بشكل عنيف وغير متوقّع، إنّه فرض عقوبة «المنع» يوم 13 جانفي 1200 على جزء من فرنسا– بمعنى الأراضي الخاضعة لفيليب الثاني–.

لقد خضع عدد من الأساقفة لأمر البابا بالخصوص في باريس، وبعض المناطق الأخرى الواقعة إلى شمالها منها: سنليس Senlis، سواسون Soissons، أميان Amiens وأراس Arras–، بأن تمّ إصدار أوامر بغلق أبواب الكنائس أمام العامّة. لقد ضرب البابا إينوسنت الثالث بإجرائه هذا قلب المملكة الكابتية. الشّعائر الدينيّة معلّقة إلى حين خضوع الملك لإرادة البابا. لقد بلغ التّوتّر بين الرّجلين أشدّه. لكن هذه القبضة الحديديّة لم تزد فيليب إلاّ إصرارا على تحدّي البابا. لقد استشاط غضبا وأوّل ما أقدم عليه أنّه طرد من مناصبهم رجال الدين الذين نفّذوا أوامر إينوسنت الثالث. لكن، بعد فترة، وبسبب شدّة الصّدمة التي مسّت المجتمع في شعائره اليومية، قرّر الرّجلان المتخاصمين التّحرّك قبل فوات الأوان.

فمن جهته قرّر الملك إبعاد أنياس، ومن جانبه ردّ إينوسنت على الفور برفع المنع على المملكة الفرنسيّة في شهر سبتمبر من نفس السنة.

لكن يبدو أنّ هذا المسلسل لم يصل إلى نهايته، لقد حدث في مجْمَع سواسون Soissons الذي اجتمع للنّظر في قضيّة فيليب وزوجته، أن قام فيليب وبحضور عدد من الكرادلة بأخذ هذه الأميرة عنوة وقام بسجنها. وفي الحبس الذي وضعها فيها الملك، لم تتوقّف الأميرة عن مراسلة البابا ليخلّصها من جحيمها، لكنّ إينوسنت الثالث كان يوظّف هذه الورقة حسبما تمليه الظّروف الرّاهنة. ولم ينته جحيم هذه السّيدة الدّانية إلاّ في سبتمبر عام 1200م.

اللاّفت للانتباه أنّ إينوسنت الثّالث لم يهتم بهذه القضيّة من زاوية العلاقة الزّوجيّة بين الملك فيليب وزوجته، فلم يكن يهمّه البتّ من تفوز بقلب الملك، إنّما كان يسعى إليه هو إقرار الأمن في أوروبا وصبّ كلّ الجهود المادية والبشرية على الحرب الصليبيّة التي كانت حاميه في المشرق.(4)

تعود العلاقات الدّانيّة– الفرنسية إلى ما قبل عهد فيليب الثّاني أغسطس. لقد ذاع صيت العاصمة باريس في كلّ الأصقاع على أنّها عاصمة العلم والدين معا. وبهدف الاستفادة من هذا الزّخم الحضاري، فإنّ عددا من أبناء الأسر الرّاقية الدانية، قد حطّوا الرّحال بالمملكة الفرنسية، والتحقوا بمدارسها الراقية، ومع مرور الوقت أصبح الدّانيون يملكون ضيعة صغيرة في فرنسا سمّيت كوليج الدّانمارك Collège de Danemark.

إضافة إلى ذلك فإنّ الحركية الدّينية التي كانت تشهدها فرنسا في هذه الفترة من العصور الوسطى قد كان لها أكبر الأثر على استقطاب عدد معتبر من رجال الدين الذين توافدوا عليها قادمين من مختلف نواحي أوروبا ومنها مملكة الدانمارك، ولعلّ من بين هؤلاء المطران إسكيل Eskill الذي استقال من منصبه والتحق في فرنسا بالقديس برنارد ST. Bernard (1090- 1153م). زيادة على ذلك كان للدّانيين أيضا علاقات تجارية مع مملكة فرنسا وقد عُرفت الأحصنة الدّانية على أنّها الأشهر في فرنسا.(5)

- البابا إينوسنت الثّالث:

اسمه المدني لوثير Lothaire وهو من منطقة سنجي Segni يعدّ من بين أشهر باباوات العصور الوسطى. ولد عام 1160 أو 1161م وتوفّي عام 1216م. ينتمي لعائلة تولّى العديد من أفرادها رتبة الكونت Comte. يتمتّع إينوسنت الثّالث بثقافة عالية، درس في روما وتنقّل إلى العاصمة الفرنسية باريس حيث تتلمذ على يدي بطرس دوكوربيل Pierre de Corbeil وبطرس لو شونتر Pierre le Chantre، وهما قامتان في علم اللاّهوت، إضافة إلى علمه الواسع، عُرف لوثير إضافة إلى علمه الغزير بذكاء حادّ أيضا.

عُيّن سنة 1189م كاردينالا– شماسا Cardinal–Diacre، وفي الثامن جانفي عام 1198م تمّ اختياره بالإجماع من طرف الكوليج المقدس بابا واتّخذ منذئذ اسم «إينوسنت الثّالث». أبدى هذا البابا حيويّة منقطعة النّظير على الصّعيد السّياسي كما في الجانب الدّيني. سار على خطى البابا جريجوري السّابع

Grégoire VII (1073– 1085م) في مسعاه لإدخال إصلاحات عميقة في الجهاز الكنسي. عمل جاهدا لتحقيق مبدأ السّلطة المطلقة للبابا في تسيير شؤون الكنيسة، بالخصوص أن تكون لهذا الزّعيم الرّوحي الأوّل للكاتوليك صلاحيّة تعيين الأساقفة أو تحويلهم من مقّر أسقفي لآخر، إنّه أوّل بابا لقب نفسه «**نائب المسيح**». وليس "نائب القديس بطرس" St. Pierre كما درج عليه الأمر في الماضي. تدخّل إينوسنت الثّالث بشكل لافت في الشّؤون السّياسيّة، ولم يتردّد لحظة في رشق العديد من حكّام أوروبا بالحرمان الكنسي L'excommunication. من هؤلاء الإمبراطور الجرماني أوتو Ottan.

ومن أهمّ أعمال هذا البابا، أنّه ساهم بشكل فعّال في تنظيم الكنيسة الرّومانية. في هذا السّياق، أولى اهتماما منقطع النّظير لتكوين رجال دين يتمتّعون بمستوى تعليمي عالي. اشتهر إينوسنت الثّالث، بتلك الحرب التي أعلنها عام 1208م ضدّ الألبجنسية Albigeois، توفّي عام 1216م تاركا كنيسة رومانية قويّة قادرة على التّدخّل في كلّ المسائل المطروحة آنذاك.(6)

ممّا تدعو إليه هذه العقوبة الكنسية الصّارمة، غلق جميع الكنائس، منع كلّ الأشخاص الدّخول إليها، ما عدا لغرض تعميد الأطفال الصّغار. ولا تفتح أبوابها، إلاّ لغرض الاعتناء بالمصابيح أو عندما يحضر إليها الكاهن لأخذ الماء المبارك لاستخدامه من أجل معالجة المرضى، أمّا عن القدّاس فلا يسمح بإقامته إلاّ مرّة في الأسبوع.

على أن يتمّ ذلك يوم الجمعة فحسب. وحتى جثث الموتى فإنّه يمنع خلال فترة العقوبة الكنسية هذه، أن تدفن في المقابر. وعلى الأشخاص الذين يرغبون في القيام بالاعتراف، كما تنصّ عليه مبادئ الكنيسة، فعليهم القيام بذلك في مجاز صحن الكنيسة، وفي حال تفتقر الكنائس للمجازات، يمكن، في حال كان الجوّ ممطرا، فتح واحدة من الأبواب ليتمّ الاستماع للاعترافات على عتبة الباب، على أن يبقى الجميع خارجا– ما عدا الشّخص، اِمرأة كانت أو رجلا، الذي يقوم بالاعتراف، على أن يُشهر الشّخص باعترافه رافعا صوته وذلك حتى يصل مضمونه إلى مسامع الأشخاص الموجودين خارج الكنيسة.

وعندما يكون الطّقس جميلا، فإنّ الاعترافات تتمُّ أمام أبواب الكنائس الموصدة أبوابها. ومن جهة أخرى لا توضع على الإطلاق، خارج الكنائس أوعية تحتوي على الماء المبارك، كلّ الأسرار المقدّسة Sacrements محظورة، ما عدا تعميد المولودين الجدد.(7)

عندما أعلن يوحنا نفسه فصلا للبابا إينوسنت الثّالث، فإنّ هذا الأخير أبدى مقابل هذه التّبعيّة، استعداده لحماية ومساعدة الملك يوحنا من كلّ خطر يحدق بمملكته. لقد ربط إينوسنت الثّالث القول بالفعل. فحينما فرض بارونات إنجلترا على الملك تطبيق «الميثاق الكبير» La grande charte، فإنّ يوحنا رفض الأمر. ممّا تسبّب في حدوث اضطرابات في المملكة كادت تهدّد بحرب أهلية شاملة.

وفي هذا السّياق استنجد الملك يوحنا بالبابا، ولكن حتّى يكسب ودّ هذا الأخير من أجل أن يسرع باتّخاذ موقف لصالحه، قرّر يوحنا أن يحمل الصّليب ويشارك في هذه الحرب الدائرة رحاها في المشرق الإسلامي. وحين بلوغ هذا الخبر مسامع سماحة البابا السّامق، قرّر دون تردّد الوقوف إلى صفّ الملك وكتب على الفور لبارونات إنجلترا مندهشا لتصرّفهم القاضي بمحاولة طرد الملك يوحنا من عرشه وهو الذي حمل الصّليب ووضع نفسه تحت حماية الكرسي الرسولي. وفي هذا الصّدد أصدر إينوسنت الثّالث مرسوما بابويا يهدف من ورائه إلى إجهاض هذا الميثاق بل إنّه اعتبر الوثيقة تجاوزا لسلطة الكرسيّ الرّسولي، ووصمة عار في جبين الأمّة الإنجليزيّة برمّتها بل وخطرا على المسيحيّة قاطبة، وذكر أنّ الحرب الأهليّة التي تلوح في سماء إنجلترا من شأنها تأخير الحملة الصّليبيّة. في هذا الصّدد، ذهب البابا إلى أبعد من ذلك حين منع الملك يوحنا من تطبيق هذا الميثاق، وهدّده إن هو فعل ذلك.

لم تتوقّف القبضة الحديديّة بين البابا وبارونات إنجلترا عند هذا الحد، بل إنّه رشق بالحرمان أولئك الذين تمرّدوا عن إرادته. لكن يبدو أنّ أسياد إنجلترا لم يكونوا مستعدّين للاستسلام للأمر المقضي، لقد وجّهوا نظرهم نحو ملك فرنسا فيليب الثّاني أغسطس لمساعدتهم. وقد عرضوا عليه بالمقابل منح تاج إنجلترا لابنه لويس. الوضع خطير للغاية، البابا يتحرّك على الفور، إنّه وجّه إنذارا للملك فيليب الثّاني يمنعه الإقدام على أمر ضدّ الملك يوحنا. لكن ملك فرنسا ضرب عرض الحائط أمر البابا. إنّه لم يرغب في إضاعة هذه الفرصة الذّهبيّة. بدأ بجمع الأموال لتجهيز حملة على إنجلترا، أمام هذا الوضع، البابا يستشيط غضبا، وردّ على تحدّي الملك فيليب برشقه بالحرمان الكنسي. لكنّ فيليب بقي متمسّكا بقراره، إنّه جمع أسياد مملكته في لقاء تمّ في مدينة مولان Melun جنوبي شرق باريس، وأعلن الجميع بعدم الانصياع لأمر البابا. هكذا، يبدو أنّ هذا التّصعيد بين الطّرفين البابوي – الفرنسي كان إيذانا بخلاف جديد حادّ بين الجانبين وكاد هذا التّوتّر الحادّ بين الرّجلين النّافذين في أوروبا أن يكون كارثيّا على الغرب الأوروبي برمته، لولا وفاة البابا في

16 جويلية عام 1216م، وفي أكتوبر من نفس السّنة تخلّص فيليب الثّاني من منافس آخر إنّه يوحنا، لقد تنفّس الملك الفرنسي الصّعداء، وحقّ له أن يخلُد للرّاحة لبعض الوقت بعدما زالت السّحابة عن سماء المملكة.(8)

– يوحنا المنزوع الأرض:

ينتمي لأسرة بلانتجنيت Plantagenêts الشّهيرة التي حكمت إنجلترا. ولد يوحنا بين 24 و27 ديسمبر عام 1166م، في مدينة لندن Londres عاصمة المملكة الإنجليزية. ابن الملك هنري الثّاني وألينور من أكيتانيا Aliénor d'Aquitaine. تولّى شؤون المملكة عام 1199 حتى وفاته في شهر أكتوبر 1216م. نال يوحنا تعليما عاليا، كان متمكّنا من اللّغات اللاّتينيّة والإنجليزية وحتى الفرنسية.

شهدت إنجلترا في عهده أزمات حادّة منها اتّهام هذا الملك الجديد بضلوعه في مقتل أرتور Arthur، وهو ابن أخيه جوفري Geoffroi المتوفّى. كما عرف عهد يوحنا، فرض رزنامة من الضرائب التي أثقلت كواهل الأهالي الإنجليز وكان هدفه من وراء فرض هذه السّياسة المالية تموين الحملات العسكرية العديدة التي كان يخوضها ضدّ مملكة فرنسا.

في عهد يوحنا أصدر أسياد إنجلترا في شهر جوان عام 1215م، «الميثاق الكبير» الذي يعدّ بحقّ معلّما حقيقيّا في التّاريخ الدستوري الإنجليزي.(9)

في إطار المساعي الحثيثة للملك فيليب الثّاني أغسطس من أجل توسيع مساحة المملكة الفرنسيّة، فإنّه تمكّن في الفترة الممتدّة من جوان عام 1202 وجوان 1204م من إلحاق تبعيّة نورماندیا – الواقعة شمالي غرب فرنسا– بالتّاج الفرنسي. ويعدّ هذا المكسب العسكري بحقّ من المحطّات اللاّمعة في سجل الملك فيليب أغسطس والحافل بالانتصارات والإنجازات. لقد استفادت المملكة من هذا الإلحاق على مختلف الأصعدة منها أنّ فرنسا أصبحت منذئذ قوّة بحرية في المنطقة، كما يسمح هذا المكسب للملك فيليب من تحقيق حماية العاصمة باريس. ضف إلى هذه الفوائد الجيواستراتيجية، فإنّ اقتصاد فرنسا قد تدعّم بشكل لافت وذلك بسبب ما تتمتّع به نورماندیا من غنى مادي. وعقب سقوط هذه المدينه الهامّة، فإنّ مدنا أخرى غرب فرنسا قد أعلنت الولاء لفيليب منها: أنجو Anjou الماين Maine وبريتاني Bretagne.(10)

– في الواقع، لم يكن فيليب الثّاني أغسطس يواجه خصومه السّياسيّين فحسب، بل كان عليه أيضا تحدّي، الزّعيم الرّوحي الأوّل للكاثوليك الرجل المحنّك، إينوسنت الثّالث.

لقد كشف هذا الأخير منذ تولّيه العرش البابوي عام 1198م، بأنّه يخطّط ليجعل من الكنيسة أداة قويّة على السّاحة العالمية.

ومن أجل أن يتحقّق هذا الهدف الأسمى للبابا، رأى بأنّه من الضّروري بمكان أن يحُولَ دون محاصرتها من طرف الأمبراطورية الجرمانيّة ضمانا لاستقلال أراضيها. في هذا السّياق بالتّحديد، اِندرج تدخّل إينوسنت الثّالث في السّباق المحموم الذي كان يجري في ألمانيا من أجل تعيين خليفة للإمبراطور هنري السّادس Henri VI الذي وافته المنيّة في الثّامن والعشرين من شهر سبتمبر عام 1197م.

لم يكن سماحة البابا يرغب في رؤية فريديريك- روجر Frédéric- Roger يشغل العرش. في الظّاهر، أنّ السّبب راجع إلى أنّ هذا الأمير كان صغير السّن، لكن باطن الأمر كان أعمق من ذلك. الحقيقة إنّ أشدّ ما كان يخشاه إينوسنت أن تتحقّق الوحدة بين صقلية وألمانيا وما يشكّله ذلك من تهديد ماحق على الكنيسة في حال مالت الكفّة لفريديريك. كما أنّ إينوسنت كان أيضا رافضا أن يتبوّأ فيليب من سوابيا Philippe de Souabe منصب الأمبراطور السامق، ذلك أنّ هذا الأخير كان يعاني من الحرمان الكنسي، وفي حال جلس على العرش يتحقّق مبدأ الوراثة، ما سيكون له تبعات خطيرة في المستقبل، ولم يبق في حلبة السّباق إلاّ أوتو الرّابع Otton IV أو Otton دوق برانشفيك Brunswick الجدير بالمنصب.

لقد توّج البابا يوم 4 نوفمبر 1209م أوتو إمبراطورا في روما، بعدما تنازل هذا الأخير للبابوية عن حقوق الإمبراطورية في إيطاليا الوسطى واعترف بسيادتها أيضا على الدّولة النّورماندية في صقلية، إنّه انتصار باهر لمشروع إينوسنت الثّالث الكبير.

بالنّسبة للملك الفرنسي فيليب الثّاني أغسطس، فإنّه اعتبر تتويج أوتو الرّابع إمبراطورا، والتّحالف الحاصل مع الكنيسة الرّومانية خطرا جسيما على مملكته لهذا السّبب استشاط غضبا لهذا الأمر، وهو ما تجلّى صراحة في نص الرّسالة الشّديد اللّهجة، الموجّه للبابا إينوسنت الثّالث والمذكورة في الوثيقة أعلاه.(11)

– موقع بين مدينتي ليل Lille – الواقعة على بعد 218 كلم شمال مدينة باريس– وتوربي Tournai – في بلجيكا– كانت بوفين في اليوم السّابع والعشرين من شهر جويلية عام 1214م، مسرحا لمعركة ضارية دارت رحاها بين جيش الملك الفرنسي فيليب الثّاني أغسطس، والتّحالف الأوروبي الذي كان يضمّ القوّات الألمانيّة بزعامة الإمبراطور أوتو الرّابع Otton IV، وجيش كونت منطقة فلاندر Flandre – الواقعة على

بحر الشّمال– واسمه فراند Ferrand وكذلك جيش كونت بولونيا Bologne على الأدرياتيك، وأسياد هولندا وكذلك اللّورين Lorraine- شرق فرنسا–.

وقد ورد في مصدر معاصر: «أنّ الملك الفرنسي لما علم بهذا الحلف الذي يهدّد مملكته انتابه هلع كبير، وكان يخشى من عدم قدرته على مواجهة أعدائه، خاصّة أنّه كان قد أرسل قسما هامّا من جيشه بقيادة ابنه لويس إلى منطقة بواتو Poitou غرب فرنسا من أجل مواجهة جيش ملك إنجلترا يوحنا المنزوع الأرض Jean sans terre. على الرّغم من صعوبة الوضع، فإنّ فيليب الثّاني جهّز جيشا من جانبه متكوّنا من جيوش عدد من الكونتات، البارونات، الفرسان، المشاة، وأمر بحالة استنفار قصوى في ربوع المملكة وانضمّ إلى الجيش الملكي ميليشيات قدمت من القرى والمدن أيضا. وفي نفس السّياق، إضافة إلى هذا التّحضير المادي، لم ينس فيليب الاستعداد المعنوي، وفي هذا السّياق طلب الملك فيليب الثّاني من رجال الدّين أن يقيموا الصّلوات والقدّاس من أجل التّضرّع للرّب لتحقيق خلاص المملكة».

وبعد يوم مشهود أبلى فيه جيش الملك فيليب الثّاني بلاء حسنا، كان النّصر حليفه، لقد تمّ إنقاذ المملكة من سقوط محتوم. وعقب هذا "الإنجاز الوطني" الرّائد، زادت مكانة الملك رفعة، والتفّ حوله الفرنسيّون باعتباره "المنقذ والمخلّص"، إنّ هذه المحطّة تعدّ بحقّ علامة فارقة في تاريخ الأمّة الفرنسيّة في العصر الوسيط.(12)

يبدو أنّ الوفاق الحاصل بين إينوسنت الثّالث والإمبراطور أوتو الرّابع لم يكن ليدوم طويلا، إنّ نشوة الانتصار على منافسيه قد أنست أوتو الرّابع، قوّة وقدرة البابا إينوسنت الثّالث على قلب الموازين متى أحسّ بغدر من أحسن إليه.

فما إن توّج أوتو الرّابع إمبراطورا نقض الوعود التي قطعها للبابا، وقد ربط القول بالفعل، ففي شهر نوفمبر عام 1210م سار بقوّاته باتّجاه صقلية وهدّد بذلك أراضي البابويّة، وعند بلوغه نبأ ذلك، لم يتردّد البابا برهة في التّحرّك قبل فوات الأوان، ذلك أنّه ردّ على غدر أوتو الرّابع بأن رشقه بقرار الحرمان الكنسي ولم يتوقّف إينوسنت الثّالث عند هذا الحدّ، بل إنّه قام، وبدعم من الملك الفرنسي فيليب أغسطس، بدفع خصوم أوتو الرّابع إلى عزله وتعيين فريديريك– روجر ابن هنري السّادس Henri VI إمبراطورا جديدا وهو ما حدث في صيف عام 1211م.(13)

الخاتمة:

شكّلت العلاقة بين الملك الفرنسي فيليب الثّاني أغسطس والبابا إينوسنت الثّالث إحدى المحطّات الفارقة في المجال الدّبلوماسي خلال فترة العصور الوسطى. إنّها وضعت وجها – لوجه شخصيّتين نافذتين آنذاك، فمن جهة ملك فرنسي غيور على ملكه، فخور بانتمائه وبأجداده الأوائل الذين صنعوا ليس فقط مجد المملكة الفرنسية بل الغرب الأوربي برمّته ولعلّ أحسن من مثل هذا المجد التّليد، الإمبراطور شارلمان (800- 814م) دون غيره. ومن جهة أخرى، جسّد البابا إينوسنت الثّالث الطّرف الثّاني البارز في هذه المعادلة إنّه لم يكن يرغبُ في أن تبقى الكنيسة أسيرة المسائل الدّينية فحسب، بل وبفضل، حنكته الفريدة وعلمه الغزير، جعل منها طرفا مهمّا في الحقل السّياسي أيضا، وإنّ جوهر سياسة هذا الزّعيم الرّوحي تأكيده على أن يكون للبابا الحق في التّدخّل في كلّ ما يتعلّق بالشّأن المسيحي سياسيّا كان أم دينيّا، وقد نجح وبكلّ جدارة واقتدار، في فرض تطبيق هذه النّظريّة إلى حدّ بعيد.

رغم ذلك الإصرار والعزم والحنكة الخارقة، فإنّ إينوسنت الثّالث، وجد في شخص فيليب الثّاني أغسطس حاكما قويّا ومنافسا عنيدا، واجه وتحدّى سماحته، قاوم عقوباته، المنع والحرمان، ولم يقبل بالتّطبيق المفرط لسلطة الكنيسة الرّومانية في مملكته، وقد انتصر في نضاله الطّويل، بأن جعل من فرنسا مملكة قويّة يحسب لها حسابها، داخل أوروبا كما في خارجها، ويستحقّ أن يعدّ واحدا من بُناة الأمّة بكلّ جدارة واستحقاق.

الهوامش:

(*)Alba (André), Le Moyen age, Hachette, 1938, PP. 156- 157.

(1)Mirepoix (Duc de Levis), Philippe Auguste et ses trois femmes, librairie Arthène Fayard, 1957, P. 20.

(2)Rigord, Vie de Philippe - Auguste dans Guizot (H.), Collection des Hémoires relatifs à l'Histoire de France, depuis la fondation de la monarchie française jusqu'au 13e siècle, Paris, 1825, PP. 9-179; Guillaume Le Breton, Vie de Philippe-Auguste dans Ibidem, PP. 183- 337; Op.Cit., pp. 11-13; le Goff (Jacques), L'apogée de la chrétienté, V. 1180- V. 1330, Bordas, Paris, 1982, p. 64; Dictionnaire des rois et des reines de France, sous la direction de Charles Dupêchez, Didier feuer, Jean D'hendecourt, Le Grand livre du mois, 1989, pp. 212-214; Bourassi (Emmanuel), La cour de France à l'époque féodable (987-1483). Des rois Pasteurs aux monarques absolus, librairie académique, Perrin, 1975, pp. 125-126, 137-138, 140.
Sot (Michel), «Article» Philippe II Auguste (1165- 1223) Roi de France 1180-1223, dans Dictionnaire du Moyen-âge, histoire et société, Encyclopedia Universales et Albin Michel, Paris, 1997, pp. 700- 702.

(3)Alba (André), Le moyen Age, Hachette, Paris, 1939, P. 183; Perrin (Ch. Ed.), Op. cit., P. 5.

(4)Petit-Detaillis (Ch.), Op.Cit., PP. 233- 234; Mirepoix (Duc de Levis), 208-210; Calmette (Joseph), Le Moyen Age, Librairie Fayard, Paris, 1948, PP. 223- 224.

(5)Mirepoix (Duc de Lévis), Op.Cit., P. 91.

(6) Hommes et femmes du Moyen Âge sous la direction de Jaques le Goff, Flammarion, Paris, 2012, PP. 205-206; Perrin (Ch. Edmond), Papauté et vie religieuse de 1198 à 1250, centre de doucumentation universitaire, S/D, PP. 1-21.

(7) :أنظرMirepoix, PP. 187- 188.

(8)Alba (A.), Op.cit., pp. 186- 187.

(9)La chaud (Frédéric), Jean-sans terre, Perrin, un département de place des éditeurs, 2018, pp. 11-12, 16; Marx Roland, «Jeans sans terre (1167- 1216) Roi

d'Angleterre 1199-1216»; dans Dictionnaire du Moyen Age, histoire et société, encyclopaedia universalis, ed Albin Michel, Paris, 1997, pp. 544-5405.

(10)Petit-Dutaillis (Ch.), Op. cit., PP. 247- 248; Histoire du Moyen-Âge et de la Renaissance, traduit de l'anglais par Janine Cyrot, Fernand Nathan, Editeur S.A., Paris, 1982, p.40.

(11)De Luz (Pierre), Histoire des Papes, Editions Albin Michel, Paris, 1960, T. I, PP. 174- 175; Rapp (Francis), Le Saint empire Romain germanique. D'Otton le Grand à Charles Quint, Tallendier 2000, PP. 187- 188; Lachaud (F.), Op.cit., P. 151; Petit-Dutaillis (Ch.), La monarchie féodable en France et en Angleterre Xe-XIIIe siècle, éditions Albin Michel, Paris, PP. 234- 235; Le Goff (Jacques), L'apogée de la chrétienté, V. 1180- V. 1330, Bordas, Paris, 1982, P. 58.

(12)Roger de Wendover, Flores Historiarum, dans Calmette (Joseph), Textes et documents d'Histoire, T. II, Moyen Âge, Paris, 1953, P. 154; Calmette (J.), Le Moyen Âge, P. 225.

(13)Rapp (F.), Op. cit., P. 189.